خطبة الوداع
دراسة بلاغية تحليلية

خليل رشيد فالح
مدرس

این صفحه در اصل مجله ناقص بوده است

خطبة الوداع*
دراسة بلاغية تحليلية

تمهيد في بلاغة الرسول «ص» :

ترقى البلاغة النبوية إلى أعلى مدارج الكمال البشري في حسن التأني للمعاني بأدق مايمكن أن تؤديه المفردات والجمل من دلالات ومعان تقع في النفوس موقعاً بالغاً من التأثير مالا تنقضي عجائبه ولايذهب بروائه ورونقه تقادم العهد وكثرة الترداد :

واذا كان من شأن العرب أن يتكلفوا القول صناعة، يحسنها خطيبهم وحكيمهم، فإن الرسول «ص» — و قد صنعه الله على عينه — يرسل الحديث سليقة وإلهاماً ، سليماً مما يعتري كلام الناس من خلل أو اضطراب ،أو يعتور محدثهم من عيّ أو حصر:

والجاحظ خير من وصف بلاغة الرسول «ص» بقوله : « وهو الكلام الذي قل عدد حروفه ،وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ونزه عن التكلف ...:

واستعمل المبسوط في مواضع البسط والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشي : ورغب عن الهجين السوقي : : : : وهو الكلام الذي ألقى الله المحبة عليه وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الافهام، وقلة عدد الكلام » (١) :

---

* لخطبة الوداع روايات متعددة تتوزع في كتب السيرة والحديث والادب والتاريخ . وقد اخذتني الحيرة في اية الروايات اختار ، وبعد المشورة وتقليب الامور على وجوهها قر الرأى على ان يكون اقدم هذه المصادر هو المعول عليه فكانت سيرة ابن هشام هي المصدر مع أن سيرة ابن اسحق هي الأقدم زمناً ، ذلك اني وجدت أن الآراء قد تباينت فى امر ابن اسحق توثيقاً وتضعيفاً مما جعل حيرتي تشتد ، الا أن الذي بعث في نفسي الطمأنينة ان ابن هشام قد عمد إلى سيرة ابن اسحق تهذيباً وتشذيبا ،في جوانب معينة ولم يضعفه اجمالا ،وهذا مما جعلني اطمئن إلى صحة النص الذي اعتمدته في الدراسة اضافة إلى ان جلة من علمائنا الا علام وثقوا الرجل وردوا عنه المطاعن ومنهم .السهيلى في الروض الا نف.

والخطبة نقلها ابن هشام عن ابن اسحق بنصها ، مما يحملني على الاعتقاد بأن ابن هشام لم يجد فى الخطبة مايدعو إلى الشك ، ولو وجد شيئاً من ذلك لما توانى عن اجراء قلمه فيه .

وأود الاشارة إلى بدء الآية المستشهد بها في الخطبة « انما النسيء» ورد في الخطبة عند ابن اسحق وابن هشام بلفظ « ان النسيء» فعمدت إلى التصحيح بين معكوفتين [ ] .

الباحث .

(١) البيان والتبيين — ١٧/٢ .

ولا غرو أن الرسول « ص » قد نشأ في أفصح القبائل ، إذ كان مولده في بني هاشم ، وأخواله من بني زهرة ورضاعه في سعد بن بكر ، ومنشؤه في قريش ، لذا قال – عليه الصلاة والسلام » :

« أنا أفصح العرب بيد أني من قريش ونشأت في بني سعد بن بكر»(٢) :

وحين تهيئه العناية الربانية للاضطلاع بأعظم ماعرفته البشرية في تاريخها الطويل من رسالات ؛ وفي قوم لهم في ميدان البلاغة والفصاحة القدح المعلى ، فلابد أن يكون النبي المرسل اليهم أفضلهم بياناً وأقدرهم على التصرف في فنون القول ، وأبعدهم عن عيوب الكلام زللا واضطراباً واستكراهاً «فليس الا أن يكون ماخصص به النبـي صلى الله عليه وسلم في ذلك قد كان توفيقاً والهاماً من الله ، او ما هذه سبيله » (٣) :

والحديث الشريف كالقرآن الكريم يجري على سنن العرب في كلامها بحفوله بالأساليب والفنون العربية التي وقفنا عليها من خلال مباحث البلاغيين ، الا ان هذه الاساليب والفنون تأتي في البيان النبوي كما في القرآن الكريم على الصورة التي تتساوق فيها الفكرة مع الفن التعبيري على ادق وجه ، فكل لفظة او جملة او فقرة لا تجدها تنبو عن موضعها ، ولا يسع احداً ان يخيلها عن ذلك الموضع او يستبدل بها غيرها لتكون اوفى دلالة واشد احكاماً..:

«وليس احكام الاداء وروعة الفصاحة وعذوبة المنطق وسلاسة النظم ، الا صفات كانت فيه صلى الله عليه وسلم عند اسبابها الطبيعية.... لم يتكلف لها عملاً ، ولا ارتاض من اجلها رياضة بل خلق مستكمل الاداة فيها ، ونشأ موفر الأسباب عليها ، كأنه صورة تامة من الطبيعة العربية» (٤) :

وفي ضوء هذا كله كان جديراً بالدارسين ان تكون لهم وقفة بل وقفات متأنية متأملة عند البلاغة النبوية بعقد مباحث تحليلية تكشف عن مواطن البراعة والدقة في فن القول في ارفع مستوياته:

الغاية من البحث ومنهجه :

جدير بطلاب العربية ورادتها وباحثيها ان يلتمسوا في كلام افصح من نطق بالضاد معالم الطريق إلى استشراف البلاغة العالية المنزهة عن العيوب والمثالب ، لتكون امامهم المثل الاعلى في الاستهداء بمعانيه وتمثل اساليبه :

---

(٢) الفائق في غريب الحديث – ١٤١ .

(٣) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية – ٣١٦ .

(٤) المصدر نفسه – ٣٢٩ .

ومن هنا كانت هذه المحاولة المتواضعة في الدخول إلى ساحة البلاغة النبوية من خلال دراسة نصّ كريم غنيّ بمعانيه السامية ومضامينه السديدة، مصوغ بالاسلوب البليغ والأداء الدقيق.

فالغاية أن نقف عند مقاطع من هذا النصّ النبوي وهو «خطبة الوداع» متأملين دلالاتها البلاغية للكشف عن جمالية توظيف الفن البلاغي الذي يرد في الحديث النبوي بعيداً عن معاناة المصنعة والاقحام او ابتغاء الحلية اللفظية التي لا غناء فيها.

ومما حملني على هذه المحاولة — بل المركب الصعب — اني لا اجد كبير عناية بالنصوص واحتفال بتحليل صيغها وتراكيبها، وبيان المواقع الدقيقة للفنون والأساليب البلاغية متميزة عن وجودها في كلام سائر الناس، كي يقف القراء على لون من الوان الدراسة التي هي في الوقت ذاته موازنة ضمنية لتوظيف فنون البلاغة بقدرات تعلو حتى تبلغ حد الاعجاز، وإسفاف ينبيء عن تمثل شكلي ورصف لفظي وخواء فكري...

فالايجاز في البلاغة القرآنية والنبوية غيره في موضع آخر، وكذلك الاطناب، فإن دلالاته المعنوية والفنية غير ما توحي به هذه الظاهرة في موطن آخر قد يكون به حاجة إلى الاطناب او لا يكون، وهو — في جميع الاحوال — يكشف عن خلل مرئي او محسوس به هنا وهناك في مواضع شتى من النصّ.

والدراسات التحليلية للبيان النبوي قليلة — كما اسلفت — غير ما كتبه الشريف الرضي في «المجازات النبوية» — إذ بنى منهجه على ان يأتي «بأحاديث او بأجزاء منها، بحسب ما وقع له في اطلاعه على مراجعه، ومنهجه ان يذكر النص، ويعقبه بالإشارة إلى اللون البياني، ويذكر ما يستدعي الذكر من المناسبة التي ورد فيها شارحاً موجها في ايجاز، مبيناً الوجه او الوجوه التي يخرج عليها المعنى وكثيراً ما يجعل سر التعبير واثره تعريفاً بالقيمة الجمالية التي تلزمه» (٥).

وكذلك الزمخشري في كتابه «الفائق في غريب الحديث» حيث نثر في غضونه لمحات واشارات إلى جمال البلاغة النبوية ضمن مباحث في اللغة والنحو والاعراب.

اما كتاب «اعجاز القرآن والبلاغة النبوية» لمصطفى صادق الرافعي، فقد كان — ولا يزال — من افضل الدراسات النظرية المستوعبة لخصائص الاعجاز القرآني والبلاغة النبوية، الا انه لم يلتمس لنفسه سبيل التحليل لنصوص من الحديث الشريف.

---

(٥) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ٤٥.

اما الكتاب الذي وقفت عليه مفيداً في هذا الباب فهو كتاب « الحديث النبوي من الوجهة البلاغية » للدكتور عز الدين علي السيد ، اذ جنح فيه إلى تحليل أحاديث شريفة متفرقة لبيان مواضع الدقة والفطرة في صوغ الافكار وجلاء المعاني:

ولعل هذا البحث المتواضع يسهم بصورة او اخرى في خدمة البلاغة النبوية من خلال دراسة «خطبة الوداع » دراسة بلاغية تحليلية . تكشف من خلالها عن طواعية الفن البلاغي في الخطبة وعن دقة الموازنة بين الفن البلاغي وبين الغايات التي يهدف الرسول المعلم (ص) إلى تحقيقها من خلال سوقه للعبارة الفنية المستوفية لكل متطلبات البلاغة لفظاً ومعنى، ضمن ثلاثة مسارات حددها الدكتور عز الدين علي السيد وهي :

١ ــ صفاء اللفظ ووفاؤه افراداً وتركيباً:

٢ ــ وضوح المعنى وظهور المغزى:

٢ ــ وسائل التشويق والايقاظ بعثاً للنشاط واجابة للداعي ، ومنها القولي ومنها الحسي (٦):

النص في سيرة ابن هشام (٧) :

«ايها الناس: اسمعوا قولي فإني لاأدري لعلي لاالقاكم بعد عامي هذا ، بهذا الموقف أبداً :

أيها الناس: ان دماءكم واموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا وانكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده امانة ، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وان كل ربا موضوع ، ولكن لكم رؤوس أموالكم لاتظلمون ولا تظلمون :

قضى الله انه لاربا ، وان ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وان كل دم في الجاهلية موضوع ، وان اول دمائكم اضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وكان مسترضعاً في بني ليث، فقتلته هذيل ، فهو أول ماأبدأ به من دماء الجاهلية:

أما بعد ــ ايها الناس ــ فإن الشيطان قد يئس ان يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به ، مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم :

---

(٦) المصدر نفسه ٦٠

(٧) السيرة النبوية لابن هشام .
القسم الثاني ــ ص ٦٠٤ ــ ٦٠٣ .

ايها الناس: [انما] النسيء زيادة في الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ماحرم الله ، فيحلوا ماحرم الله، ويحرموا ماأحل الله ، وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية ورجب مضر الذي بين جمادي وشعبان.

اما بعد ايها الناس : فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ان لا يوطئن فرشكم احداً تكرهونه ، وعليهن أن لايأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلن فان الله قد اذن لكم ان تهجروهن في المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح . فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً فانهن عندكم عوان لايملكن لأنفسهن شيئاً ، وانكم انما اخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا — ايها الناس — قولي فإني قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فان تضلوا ابداً: امراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه.

ايها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه : تعلمن ان كل مسلم أخ للمسلم ، وان المسلمين اخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عل طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم :

اللهم هل بلغت :

فذكر لي أن الناس قالوا: اللهم نعم : فقال رسول الله (ص). اللهم اشهد :

الدراســـة :

يستهل الرسول «ص» خطبته بقوله :

«ايها الناس : اسمعوا قولي ، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا ، بهذا الموقف أبـــداً » :

نلحظ أول مانلحظ هذا النداء القريب إلى النفوس ، إذ استغنى عن أداة النداء «يا» ، وغيرها تحقيقاً لهذا القرب والتلاحم مع ابناء الأمة الذين زالت الهوة بينهم وبين معلمهم وهاديهـــم :

ان حذف اداة النداء قدحقق هذا القرب والتلاحم ، فكأن الناس قريبون اليه يناديهم بأرق النداء وأعذبه ليستميل قلوبهم إلى مايلقي عليهم من حسن التوجيه وسديد الارشاد.

ويا النداء وضع في اصله لنداء البعيد ، بدليل انهم عدوا الأداتين «الهمزة وأي» للقريب(٨) :

---

(٨) التلخيص في علوم البلاغة — الهامش ١٧٢ .

«وأما «يا» فقال ابن الحاجب: انها حقيقة في القريب والبعيد لانها لطلب الاقبال مطلقاً ، وقال الزمخشري: انها للبعيد» (٩) :

وإذا كان الأمر كذلك فإن من الواضح أن يكون حذف أداة النداء دالاً على قرب المنادي للمنادى ، والالتصاق به والتحبب اليه :

وليس بسعنا في هذا الموضع ان نحمل حذف الأداة على خلاف مقتضى الظاهر ، لأن ذلك يدعونا إلى القول إن المنادى ممن سها أو غفل ، وما كان له أن يكون على ذلك الحال ، إلا أن حذف الأداة هنا جاء على الحقيقة والحال وليس عدولاً عنها تنزيهاً من الرسول (ص) للمسلمين عن السهو والغفلة :

«اسمعوا قولي» اسمعوا فعل أمر ، وللأمر وجهتان في التعبير البلاغي : حقيقي ومجازي ، وللمجازي اغراض متعددة :

ينبغي أن نحدد بادىء ذي بدء مدلول الأمر الحقيقي والأمر المجازي لنتبين في أي المسارات تتجه هذه الصيغة :

الأمر الحقيقي : «صيغته موضوعة لطلب الفعل استعلاءً ، لتبادر الذهن عند سماعها إلى ذلك وتوقف ماسواه على القرينة» (١٠) :

أما صيغة الأمر المجازي – فكما قال القزويني – قد تستعمل في غير طلب الفعل بحسب مناسبة المقام ، كالاباحة ... والتهديد ... والتعجيز ... والتسخير ...» (١١) .

وإني ارجح ان الأمر في هذا الموضع مجازي ، وذلك بدلالة الاستهلال الرقيق ، فلا يسوغ ان يكون النداء يحمل في تضاعيفه من معاني التودد والتلطف ثم يعقبه مباشرة بما يدل على الأمر خشية أن يقع ذلك من نفوس سامعيه موقعاً لا يرتضيه ، ولما يحصل من التفاوت بين الرقة والتلطف وبين الشدة التي يحملها الأمر الحقيقي مدلولاً من مدلولاته.

اقول ذلك من غير أن يتبادر إلى الذهن ان الرسول (ص) لاقبل له بأن يأمر قومه بما يشاء فيطاع ، هذا أمر لامشاحة فيه بقدر ماتود أن ترسم من خلال هذا المقطع صورة التناغم البياني بين اجزاء المقطع ، وتلك خصوصية من خصوصيات البلاغة النبوية الكريمة. ولذلك فإن المعنى المجازي الذي أرجحه من خلال صيغة الأمر هو لفت الأنظار وتوجيه

---

(٩) مواهب الفتاح (من شروح التلخيص) ٣٣٤ .

(١٠) الايضاح في علوم البلاغة – ١٤٣ – ماسواه اي الأمر المجازي.

(١١) المصدر نفسه ١٤٣ .

للنفوس أو تنبيه الجمع المخاطب إلى مايعرضه عليهم من توجيهات :

وما يلي هذا الأمر من العبارات يعزز مجازيته ، وذلك في قوله (ص) :

«فإني لا أدري لعلي لاألقاكم بعد عامي هذا ...» فجملة المقطع تتسم بالانسيابية وهدوء النبرة ، مما يتسق مع مجازية الأمر السابق على هذا المقطع ،ولذ في الأمر الحقيقي — لو كان هو المراد — من القوة والشدة :

فإني لاأدري ...: إن : من أدوات التوكيد ، وهي ترد في غضون الخطبة بكثرة ملحوظة ، ولكل موضع ترد فيه «إن» دلالة التوكيد والأهمية.

فهل كانت «إن» من مؤكدات مضمون هذا القول ، وهل هي من مقتضياته ؟

أما كان منتظراً أن يقول : فلعلي لاألقاكم بعد عامي هذا ؟.

أقول: لو جاء الكلام على هذه الشاكلة لما تأتى لهذا الكلام أن يفعل فعله التوجيهي للعقائدي:

ان جو الكلام منذ استهلاله يوحي بأن الرسول (ص) قد وقف وقفة المودع ، فأراد أن يقرر حقيقة رحلة الانسان من حياته الدنيا ، بتقريره انه — وان كان رسولاً يوحى اليه — فهو لايدري متى سيكون رحيله :

— فإني لاأدري — : أي حتى هو بوصفه نبياً يوحى اليه — يجهل حقيقة هذا الأمر ،ولعل مما يخالج نفوس المسلمين من أن الرسول (ص) يعلم بذلك، فلكي يستقر هذا المفهوم بكل أبعاده من غير أن يعتري السامع شك في ذلك جاء بصيغة التوكيد الذي من شأنه أن يرسخ الفكرة في الاذهان :

وربما يرد في هذا الموضع سؤال مفاده : أليس هذا يعني أن الرسول (ص) قد أوحي اليه بدنو أجله ؟ :

نقول : ربما أوحي اليه بذلك،ولكن لم يرد أن يقطع بشيء من ذلك ،فالله وحده الذي يقرر: والاستشعار بدنو الأجل ليس معناه معرفة ساعة الرحيل على وجه الدقة والضبط ، ثم انه (ص) لم يشأ أن يجعل المسلمين في دوامة الاضطراب والقلق خشية أن ينفرط شملهم ويصيبهم من الذهول مالا يرتضيه لهم .

ومن الملاحظ البلاغية في استخدام «إن» في هذا الموضع انها جاءت في عقب جملة سابقة فقد كان مجيء «إن» ضرباً من ضروب التوثيق بين الجملتين :

قال الرملكاني : «وتجيء – أي إنّ – لربط بين جملتين لتوصل أحداهما بالأخرى ، فتراهما بعد دخولها كأنهما قد افرغا في قالب واحد» (١٢) .

ويرى الرملكاني انه يسع المتكلم أن يأتي بالفاء مكان «إن» ولكن لاتودي مؤداها من قوة الربط والتوكيد والامتزاج :

يقول في ذلك: «..لرأيت الامتزاج والألف منقاصراً عما كان عليه» (١٣) :

ولعل في هذا جواباً على تساؤلي في موضع سابق : ألم يكن منتظراً أن يقول الرسول (ص) : «اصمتوا قولي فاعلي لا ألفاكم» ،ففي كلام الرمنكاني مايغني عن التفصيل والبيان.

«ومعنى» أداة الترجي ،هذه الأداة لم تحظ بعناية البلاغيين قدر ماعدوه أداة نحوية فحسب.

وكان لأجدر بالبلاغيين ان يتحدثوا عن هذه الاداة في جملة ما تحدثوا به عن غيرها من اساليب التعبير كالأمر والاستفهام والنهي والتمني وان يعدوها في الانشاء غير الطلبي بوجه خاص، كما فعلوا بصنوها «ليت» .

والمعنى الاساس للاداة «لعل» هو الترجي . ولو تتبعنا دلالاتها المجازية لوجدنا انها تخرج إلى معان أخر ، وربما كان التقرير او التمويه او التمني من جملة دلالالتها.

واني انفي ان تكون دلالتها في الخطبة ترجياً ، بل هو تقرير واشعار بدنو الأجل، ولكن الرسول (ص) اراد ان يجعل الأمر مرهوناً بالآجال التي قرر انه لا يدري مواقيتها.

ويحجزنا الحياء عن القول إن الرسول (ص) اراد ان يموّه على اصحابه الأمر ، فيبعد اذهانهم من قضية رحيله وفراقه، فساق الموضوع بصيغة تقريرية تنسحب دلالتها على كل انسان، فكلنا معرضون للموت في كل لحظة.

ترد بعد ذلك الحقائق التي اراد الرسول (ص) ان يغرسها في نفوس المسلمين على انها احكام للحياة لا تحتمل تأويلاً ولا تقبل حيدة او جنوحاً . فجملة ما واجه به المسلمين وردت بصيغة التوكيد الحقيقي :

وقد قرر البلاغيون ان «الاهتمام بالشيء وانفعال النفس به يستوجب ضرباً من تأكيده، امراً أو نهياً او خبراً يستلزم طلباً او خبراً يقع في الجواب» (١٤) :

---

(١٢) البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن – ١٥٦ .

(١٣) المصدر نفسه – ١٦٥

(١٤) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية – ٧٣ .

وقد جاء التوكيد في مقاطع الخطبة بأكثر من وسيلة ، وهي :

أداة التوكيد «إنّ» والتكرار ، وتقديم ماحقه التأخير (ومنه القصر) ، وأدانا التحقيق والتوكيد «قد وكل» :

ومما جاء مؤكداً بإن :

« ان دماءكم وأموالكم عليكم حرام ... »

« وانكم ستلقون ربكم ...»

« وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ...»

« وإن كل دم في الجاهلية موضوع »

« وان أول دمائكم أضع ...»

ومما جاء مؤكداً بالتكرار :

«كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ... » :

ان حرمة الأموال والدماء ولقاء الله ووضع الربا والدماء مما تعد من كبريات القضايا التي كانت تسود حياة العرب ، وكان لابد لها من الحسم القاطع ، تنقية للمجتمع الاسلامي من كل بقايا الجاهلية ومواريثها ، ولذلك تصدرت هذه المقاطع أداة التوكيد «إن» التي تضمن الايصال والتثبيت اضافة إلى حسم التردد والشك في القبول والتلقي :

ونقد ذهب البلاغيون إلى أن استخدام أداة توكيد واحدة ضمن العبارة هي لحسم الشك والتردد . قال القزويني : «وان كان متصور الطرفين ، متردداً في اسناد احدهما إلى الآخر طالباً له حسن تقويته بمؤكد» (١٥) :

وليس هذا الأمر مطرداً على نسق متواصل ، فقد يخرج استخدام الأداة في غير هذا الموضع مراعاة لغير الظاهر ، كما قرر البلاغيون أنفسهم ، فقد ذكر القزويني نفسه ذلك في قوله : «وكثيراً مايخرج على خلافه ، فينزل غير السائل منزلة السائل — أي المتردد الشاك — إذا قدم اليه مايلوح له بحكم الخبر ، فيستشرف له استشراف المتردد الطالب» (١٦) :

ونحن نقول : ان اداة التوكيد سواء اكانت واحدة ام اكثر فانها تفيد توثيق الأمر وضمان حسن تلقيه واثره في نفس المتلقي واتخاذ موقف معين من مضامينه ، سواء اكان في الأمر شك ام لم يكن ، وإلى جانب ذلك إشعار بأهمية الاحكام المعروضة ضماناً

(١٥) الايضاح في علوم البلاغة ١٨ .

(١٦) المصدر نفسه ١٩ .

لحشد الطاقات النفسية والاجتماعية لاجتثاث ما علق بالنفوس والواقع المعيش من آثار وقيم نسخها الدين الاسلامي:

والتكرار هو الآخر اشعار بأهمية الأمر واعظام لشأنه. قال (ص): كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا. والحرمة في حياة المسلمين قضية لها من الخطر والجلال ما لها، وتكرار اللفظة ايقاظ للحواس، ولا يغب عن البال ما اضافه تكرار (هذا) في نهاية كل مقطع من ايقاع لفظي زاد من جلال التوكيد جلالاً، وكان له من الواقع ما يحفز النفوس إلى التثبيت والتملي واستيعاب القضية بكل أبعادها النفسية والفكرية، وهذا «على جانب من التنغيم النافذ إلى الروح، ندركه دائماً في حسن جرسه وتعانق معانيه وتتابع موجاته، يدفع بعضها بعضاً في نشاط وتشابه» (١٧):

ويشير الزمخشري إلى القيمة الفنية والمعنوية في ظاهرة التكرار بأنها «استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد، وطريقة الانصات لكل حكم نازل، وتحريك منهم لئلا يفتروا او يغفلوا عن تأملهم وما اخذوا به» (١٨):

«وقد بلغت»: في هذا المقطع اكثر من دلالة بلاغية،

١ — استخدام (قد) مفيدة التحقيق هو لون آخر من الوان التوكيد التي تحفل بها كظاهرة معنوية موظفة للتبليغ والتثبيت ولفت الأنظار نحو الاحكام النبوية.

٢ — حذف المفعول به:

يقول الامام عبدالقاهر في بلاغة الحذف واثره الجميل في تقوية الفكرة:

«هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فانك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الافادة أزيد للافادة، وتجدك انطق ما تكون اذا لم تنطق، وأتم ما تكون بياناً اذا لم تبن» (١٩):

ان البيان النبوي قد استغنى عن المفعول به لعمومه، ودلالة ما سبقه عليه من جهة، إذ أنه «يتناول كل ما يصح أن يدخل تحت هذا الفعل، فليس ذكر البعض بأولى من

---

(١٧) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ٢٦٥.

(١٨) الكشاف ٤/٢٧٩.

(١٩) دلائل الاعجاز ٩٨.

الآخر» (٢٠)، ومن جهة اخرى فان الاهتمام بالفعل هو المراد، اي ان الرسول (ص) أشهدهم على انه قام بالتبليغ، اذن الحديث هو الارجح في الذكر دون غيره من متعلقاته :

وفي بيان هذا المنحى البلاغي يقول الزمخشري في حديثه عن حذف المفعول :

«وقد يحذف المفعول لأن القصد إلى الفعل غير معتمد إلى شيء، يقول في قوله تعالى:

« يأيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يدي الله ورسوله » وفي قوله : لاتقدموا من غير ذكر مفعول وجهان : احدهما ان يحذف ليتناول كل مايقع في النفس مما يقدم ، والثاني الا يقصد قصد مفعول ولا حذفه» (٢١) :

٣ — ورود المقطع بالصيغة الخبرية ، ولعل في هذه الصيغة من الثقة والاعتداد بتجاوب المسلمين مالم يجد معه حاجة إلى التماس الأساليب الانشائية التي تساق غالباً في مواضع بها حاجة إلى استثارة الهمم وقرع النفوس التي قد تتلبس ببعض الغفلة أو التردد.

« وقد بلغت » : صيغة الحسم والقطع ، بل صيغة الاشعار بأن هذا هو البلاغ النهائي الذي لابلاغ من بعده :

ومن أساليب التوكيد التي وردت في غضون هذه المقاطع :

« إن دماءكم وأموالكم **عليكم** حرام.. »

« ولكن **لكم** رؤوس أموالكم »

نجد في المقطع الاول تقدم الجار والمجرور (عليكم) على خبر إن ، وهو في عرف النحاة فضلة من حقها ان تتأخر ، ولكن له في البيان النبوي تقدم ملموس ظاهر ، ترى أكان التناغم اللفظي هو الذي استدعى هذا التقديم ، أم أن وراء تقديمه غاية معنوية أخرى ؟

ليس بوسعنا أن نقطع باجابة عن واحد من ذينك التساؤلين بقدر ما نود ان نوفق بين التساؤلين :

إن البيان النبوي قد توخى الايقاع المتناغم الذي يكسب العبارة جمالية محببة إلى النفس من خلال توالي: دمائكم — اموالكم — عليكم —

إذن نحن لاننفي هذه الصيغة الجمالية التي هي من أجلى خصائص البلاغة النبوية التي اجتمعت فيها — على حد قول الرافعي — ثلاث صفات هي :

الخلوص والقصد والاستيفاء (٢٢):

---

(٢٠) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ٣٣٥.

(٢١) الكشاف ٤/٢٧٧ .

(٢٢) اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٣٧٣ .

إلا أننا في الوقت ذاته نحسّ ان التقديم إن خلا من الفائدة المعنوية فان الجانب الجمالي يظل حلية خاوية تنزه البلاغة النبوية عن أن تكون هدفاً من أهدافها .

إن الذهن ينتظر خبر (إن) ليكتمل به المعنى الأساس ، فإذا بالذهن يقرع بالجار والمجرور (عليكم) خطاباً مباشراً إلى المسلمين ؛ إذن الأمر الذي سيسمعونه خطير ، فهو يعنيهم ويمس وجودهم وكيانهم ، ففي هذه اللحظة يساق الخبر حكماً من الأحكام خطير الشأن ، بعد أن هيأ تقديم الجار والمجرور الاذهان لتلقي الخبر :

وكذلك الأمر في قوله (ص) : « ولكن لكم رؤوس اموالكم» فإنه اشعار إلى أن ما كان غير محذور يعود إلى أصحابه ؛ فرؤوس الاموال حق مشروع من حقوقهم دون مايتمخض عن الربا من أموال لايباح لهم تملكها وحيازتها :

ومن اجل ان لا يظنوا انهم سيضيعون كل شيء بعث في نفوسهم الطمأنينة من خلال (لكم) وهو خبر مقدم ، لو قال : ولكن رؤوس اموالكم لكم ، فاربما ذهبت الظنون انها هي الاخرى ستضيع ، فالخبر هو الأهم في ان يذكر اولاً ، فان تقدمه باعث على الطمأنينة وراحة البال وفي بلاغة التقديم يقول القزويني :

« ان تكون العناية بتقديمه والاعتناء بشأنه بكونه في نفسه نصب عينك ، والتفات خاطرك اليه في التزايد..... او لعارض يورثه ذلك ، كما اذا توهمت ان مخاطبك ملتفت الخاطر إليه ينتظر ان تذكره، فيبرر في معرض أمر يتجدد في شأنه التقاضي ساعة فساعة ، فمتى تجد له مجالاً للذكر صالحاً اوردته» (٢٣) :

ومن خلال المقاطع السابقة تلفت انظارنا صيغ جديرة بالوقوف للتعرف على دلالتها الخاصة من خلال تراكيبها الخاصة.

«وانكم ستلقون ربكم»

ان من اركان العقيدة ان يلقى العباد ربهم ليحاسبهم ويسألهم عن اعمالهم :

والفعل في الجملة مصدر بسين الاستقبال ، وهذه السين قد حققت احساس السامع بقرب هذا اللقاء، وقد عدل البيان النبوي عن « سوف » وهو ايضاً حرف استقبال ولكنه يدل على تحقق الفعل بزمن أبعد ، وربما كان في استخدامه في ظاهر الحال اكثر دلالة

---

(٢٣) الايضاح في علوم البلاغة ١١٥ .

على السين، الا ان «السين» فيها من دلالة القرب ما يشعر أن الأمر واقع لا محالة، ليكون ذلك الاحساس باعثاً على التعجيل بالالتزام والتمثل والتطبيق.

وحين تحقق السين هذا الاحساس دون سوف الدالة على التراخي الزمني فان البلاغة النبوية قد حققت مبدأ المطابقة لمقتضى الحال بدقة متناهية متساوقة مع القدرة المتميزة لأعلى ذروة البلاغة البشرية ان تبلغها او ان تحققها.

ونقف عند الفعل «فليؤدها» وهو مضارع مجزوم بلام الأمر جاء جواباً لشرط لا يحتمل الا هذه المباشرة التي وضحت الحكم بكل أبعاده، فالامانة ينبغي ان تؤدى، واذا لم يكن هناك سبيل إلى غير ذلك فلا مناص للمخاطب الا ان يفعل.

والأمر هنا حقيقي، وحقيقيته هي من مقتضى الموقف الذي يتطلب ذلك، وقد سبق ان عرضنا لدلالة الأمر الحقيقي.

ويلفت انظارنا ان المقاطع التي تصدرتها ادوات تركيد تخللتها مقاطع خلت من تلك الأدوات، مع ان مقتضى الظاهر ان تتصدر بها، لأن مضامينها ليست ادنى درجة من الاهمية عن مضامين تلك الجمل المؤكدة التي تكتنفها قبل وبعد

«ومن هذه المقاطع قوله (ص) :

« تظلمون ولا تظلمون»

«قضى الله انه لا ربا»

والجواب عن ذلك يتطلب النظر إلى الموضوع من جهتين :

الاولى : ان الرسول «ص» استشهد بآية كريمة ، والاستشهاد لايحتمل الاضافة والزيادة.

الثانية : ان الاستغناء عن ادوات التوكيد في عرف البلاغيين لأمرين : إما أن المخاطب خالي الذهن ، أي انه غير متردد في قبول الحكم ، أو غير منكر له حتى يتطلب أداة للتوكيد ، واما ان المتكلم ينزل المتردد أو المنكر منزلة خالي الذهن ، لأن الموضوع مما لايحتمل شكاً أو انكاراً »

قال القزويني في بيان ذلك :

«فان كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر ، والتردد فيه استغني عن مؤكدات الحكم ...» (٢٤)

(٢٤) الايضاح : ١٨ .

«وكذلك ينزل المنكر منزلة غير المنكر ، إذا كان معه إن تأمله ارتدع عن الانكار ، كما يقال لمنكر الاسلام «الاسلام حق» وعليه قوله تعالى في حق القرآن «لاريب فيه» (٢٥)

وكأن الله تعالى جعل انتفاء ظلم المؤمن لأخيه المؤمن في معيار الاسلام أمراً لامشاحة فيه، أي انه من مستلزمات الروابط الاسلامية في ظل المجتمع الاسلامي ان يخلو من الظلم.

وقوله (ص) ؛: قضى الله انه لا ربا :

أرى أن ننظر فيه من وجهتين :

الاولى : ان خلو المقطع من أدوات التوكيد هو أيضاً من باب انزال المتردد أو المنكر منزلة خالي الذهن لوضوح الأمر وبداهته ، فكيف يصح في شرع قوامه العدل والحق أن يكون فيه اباحة للربا وهو ظلم فاحش :

الثانية : انني المح ان الصيغة التي سبقت بها العبارة مؤكدة لذاتها ، وهذا يدعونا إلى القول أن في المقطع توكيداً ضمنياً يوحي به عموم العبارة ، فهل يفهم من الفعل « قضى» غير الأمر الجازم الذي لا محيد عنه ، وهل يفهم من قوله « لاربا» بهذاالنفي غير أن يكون الحكم حاسماً لاخلاف عليه :

ويشبه ذلك مايستخدم من العبارات الشائعة من قولهم : يجب أن ــ ولابد أن ــ ولا مناص من «اليست هذه الصيغ مما يحمل التوكيد ضمناً من تضاعيفها :

وبهذا يمكننا أن نضيف نوعاً جديداً لاساليب التوكيد المعنوي واللفظي نسميه بالتوكيد الضمني :وهو مايستفاد من عموم العبارة التي تساق بحيث لاتحتمل من المعاني إلا وجهاً واحداً يفيد الجزم والحسم والتوكيد :

وفي الختام تجسد الحرص النبوي على أن تبلغ جملة هذه التوجيهات من مكامن نفوس المسلمين إلى صورة التوكيد : «فلا تظلمن انفسكم » وكان يسعه (ص) ان يقول : فلا تظلموا أنفسكم، ولكن نون التوكيد هي بمثابة أداة القرع للنفس خشية أن تغفل فتضل :

ثم أعقب ذلك بصيغة انشائية : اللهم هل بلغت ::: والصيغة المعتمدة هي الاستفهام ، ليستوثق من يقظة المسلمين وتجاوبهم فيسمع منهم الجواب الذي يبعث في نفسه الطمأنينة على أن مازرعه من كلمات انما هي الشجرة التي ضربت بجذروها في الأعماق ، وسمقت إلى الأعالي باسقة ظليلة آتية ثمراً طيباً ٥

---

(٢٥) الايضاح : ٢٠ .

وهنا تستوقفنا الصيغة الاستفهامية لنسأل أنفسنا : هل جاء الاستفهام في هذا الموضع حقيقة أم مجازاً ؟

أود ان أعرض للأمر من جانبين : كل جانب يحدد مسار هذا الاستفهام :

الجانب الأول : يتصل بالرسول (ص) مبلغاً للأمانة ، فقد عدل عن الصيغة الاخبارية على النحو الذي ورد في أول الخطبة «وقد بلغت» لكي يأتي التقرير اشد في النفس وأوقع ، وادعى إلى الطمأنينة :

أي أن الاستفهام مجازي خرج إلى التقرير والتثبيت :

أما الجانب الثاني فهو مما يتصل بجمهور سامعيه حين حملوا الاستفهام على معناه الحقيقي ، فأجابوا : اللهم نعم :

ونحن نعلم ان الاستفهام المجازي هو مالا يحتاج إلى جواب ، لانه ليس من قبيل طلب حصول الفهم — كما يقول البلاغيون» (٢٦) :

وبذلك حققت البلاغة النبوية نمطاً فريداً من التعبير راعى فيه حالة المتكلم وموقفه مبدئياً ونفسياً ، وراعى في الوقت ذاته المخاطبين وما هم عليه من موقف ازاء مايلقى عليهم ، فوجدوا انفسهم ان الرسول (ص) : يستفهم بقوله «هل بلغت» ليجيء الجواب في إثره : اللهم نعم ... وهو جانب يعزز الحالة النفسية للرسول المبلغ حيث استوثق انه ادى الامانة كاملة غير منقوصة :

---

(٢٦) التلخيص في علوم البلاغة — الهامش : ص ١٥٣ .

ثبت المصادر والمراجع

١ ـ اعجاز القرآن والبلاغة النبوية ـ مصطفى صادق الرافعي
ضبط وتحقيق محمد سعيد العريان ـ مطبعة الاستقامة مصر ـ ١٩٤٥

٢ ـ الايضاح في علوم البلاغة ـ لجنة من الازهر ـ اشراف محمد محيي الدين عبدالحميد ـ القاهرة.

٣ ـ البرهان الكاشف عن اعجاز القرآن ـ كمال الدين الزملكاني ـ تحقيق. د. احمد مطلوب. د. خديجة الحديثي ـ رئاسة ديوان الاوقاف ـ احياء التراث الاسلامي ـ ٩.

٤ ـ البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري واثرها في الدراسات البلاغية د. محمد حسنين ابو موسى ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة.

٥ ـ البيان والتبيين ـ الجاحظ ـ تحقيق وشرح ـ عبدالسلام محمد هارون ط٣ ـ مؤسسة الخانجي ـ القاهرة

٦ ـ التلخيص في علوم البلاغة ـ القزويني ـ شرح وتحقيق عبدالرحمن البرقوقي ـ ط٢ ـ القاهرة: ١٩٣٢م:

٧ ـ الحديث النبوي من الوجهة البلاغية ـ د: عز الدين علي السيد: دار الطباعة المحمدية ـ الازهر ـ القاهرة ـ ١٩٧٣م:

٨ ـ دلائل الاعجاز ـ عبدالقاهر الجرجاني ـ تحقيق احمد مصطفى المراغي ـ القاهرة:

٩ ـ السيرة النبوية ـ ابن هشام ـ تحقيق ـ مصطفى السقا ـ ابراهيم الابياري ـ عبدالحفيظ شلبي ـ القاهرة ١٩٥٥

١٠ ـ الفائق في غريب الحديث ـ الزمخشري ـ تحقيق ـ علي محمد البجاوي ـ محمد ابو الفضل ابراهيم ـ ج١ ـ ط٢ ـ
مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ ١٣٦٦هـ:

١١ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل: الزمخشري ـ ج٤ ـ مطبعة الاستقامة:

١٢ ـ مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح ـ ابن يعقوب المغربي ـ «ضمن شروح التلخيص» مطبعة البابي الحلبي ـ ١٩٣٧